الأدب ودوره فى التلاقى العربى
وتأكيد الانتماء

د. كمال بشر(*)

«الأدب» - بوصفه مصطلحاً - ذو مفهوم واسع، متنوع الألوان، متعدد التناول فى الاستعمال والتطبيق. يختار كل باحث أو دارس اللون الذى يروقه ويفى بمقاصده ويلبى حاجاته. فللقدماء رأى أو اتجاه، وللمحدثين نظراتهم وتأملاتهم.

فالأدب عند قوم هو الجميل من القول نثراً ونظماً، أو هو كل ما أنتجه وينتجه العقل الإنسانى من ضروب المعرفة. وقد يميل قوم إلى تعميم المفهوم نسبيًا، فيعرفون الأدب بأنه «رياضة النفس بالتعليم والتهذيب على ما ينبغى، أو هو جملة ما ينبغى لذى الصناعة أو الفن أن يتمسك به». ولبعض المتقدمين من العرب نظرة مخالفة تتسم بالعمومية والتنوع والتفريع لمفهوم الأدب، بحيث يغطى جملة من المعارف وحقول الدرس الأخرى التى يشكل كل واحد منها ما يمكن حسبانه علماً أو لوناً من الدرس له خواصه ومميزاته الفارقة فى المادة والوظيفة. لقد أخذ هؤلاء «الأدب» على أنه إطار من الإنتاج الفكرى الإنسانى، تمتد مظلته وتتسع لتنتظم ما ليس من حوزتها عند كثير من أهل الاختصاص.

الأدب عند هؤلاء المتقدمين ليس علماً أو حقلاً واحداً، إنما هو جامع لجملة من العلوم، سَمُّوها علوم الأدب. هذه العلوم، وفقاً لرؤيتهم، هى «اللغة والصرف والاشتقاق والنحو والمعانى والبيان والبديع والعروض والقافية والخط والإنشاء والمحاضرات».

(*) أستاذ الدراسات اللغوية، كلية دار العلوم - جامعة القاهرة.

هذه الرؤية لمفهوم الأدب - وإن بدت غريبة عصية الاستيعاب على غير العارفين- يمكن تفسيرها وتحليل مضمونها العميق الذى لم يفصحوا عنه لنصل فى النهاية إلى أنهم - فى حقيقة الأمر - رأوا ما رأى آخرون فى تحديد مفهوم الأدب، وإن جاء تحديدهم لهذا المفهوم مخالفاً للمألوف. إنهم لم يقفزوا - كما يصنع غيرهم - إلى تحديد البناء (وهو الأدب)، وآثروا الإشارة بصريح العبارة إلى لبنات هذا البناء ومكونات قوامه.

ذلك أن «الأدب» - وهو الجيد أو الجميل من القول نثراً ونظماً عند أغلب الدارسين - لا يكون ولا يرجى الوفاء بحقيقته وخواصه إلا بامتلاك أدواته وعناصر تكوينه على الوجه المقبول أو المرغوب. ومن اللافت للنظر، ومن دلائل عمق الرؤية أن هذه الأدوات والعناصر مذكورة بالتصريح فى تحديدهم للأدب بوصفه بناء كاملاً ذا قوائم وأركان متعددة، لا يستقيم له شكل، ولا يتحقق له وجود إلا بهذه القوائم والأركان وأخذها فى الحسبان عند إرادة صنع هذا البناء.

ومن الجدير بالذكر أن هذه العناصر والأدوات اللازمة لتشكيل البناء الأدبى جاءت متكاملة ومتساوقة تماماً مع صنوف الأدب ودرجات بنائه من حيث القبول والجودة، سواء أكان الأدب منطوقاً أم مكتوباً، نثراً وشعراً.

فاللغة (والمقصود بها هنا الثروة اللفظية) والصرف والاشتقاق والنحو أدوات أساسية لصناعة أى ضرب من ألوان الأدب، ولا يمكن أن يصنف التأليف أدباً ما لم يكن صاحبه على معرفة كافية بهذه الحقول، وقادراً على التصرف معها وتوظيف ضوابطها وقوانينها توظيفاً صحيحاً. وهذه الخطوة من المعرفة بهذه العلوم بالذات خطوة حتمية وضرورية لإقامة أى بناء أدبى، سواء أكان نثراً أم شعراً، منطوقاً أم مكتوباً.

وتلى هذه الخطوة خطوة أخرى ترمى إلى تجويد العمل الأدبى أو امتيازه. وسبيل ذلك - كما هو مقرر معروف - العود إلى علوم المعانى والبيان والبديع؛ إذ هى - بحكم وظائفها وخواصها - الوسيلة المعرفية الإضافية التى تدرج بالعمل الأدبى إلى مرتبة أرقى وتصنفه عملاً بليغاً، لانتظامه حينئذ عوامل التجويد أو الامتياز، المعبر عنها بإيجاز ذكى عميق: «مطابقة الكلام للمقام أو مقتضى الحال». ولا يكون ذلك بحال إلا بالتماس العون من هذه العلوم، من التصرف فى نظم الكلام وطرائق تأليفه، والتفنن فى اختيار مكونات البناء من ألفاظ وعبارات، ومن الحصافة فى اختيار الألوان البديعية التى تكسو هذا البناء. وهذه الخطوة الثانية هى الأخرى تنطبق على كل ألوان الأدب وصنوفه، نثراً وشعراً، منطوقاً ومكتوباً.

وهناك ألوان من الأدب لها خصوصياتها التى تنفرد بها، بحكم طبيعتها المميزة لها، ومن ثم كان على صانعها التماس المعرفة بعلوم تفى بهذه الخصوصيات. فالشعر مثلاً لا يأتى صنعه ولا يقبل أداؤه إلا إذا تحققت له خواصه الأساسية، وهى الأوزان بنغماتها وموسيقاها المقررة التى لو حرم منها التأليف ما جاز تصنيفه شعراً، عند الثقات من الدارسين. ومن هنا كان النص على علمى « العروض والقافية» لمقابلة حاجته والوفاء بحقيقته بوصفه ضرباً من التأليف متفرداً يسوغ تسميته شعراً.

والخط أيضاً جاء ذكره فى قائمة علوم الأدب لغرض خاص. ذلك أن الأدب المكتوب يحتاج إلى عامل إضافى يدرج به إلى مرتبة الأدب المنطوق الذى ينماز من صاحبه بالأداء الحى المنطوق المشحون بالحيوية والوضوح بما يكسوه من نغم وإيقاع، لهما دور فائق الأهمية فى عملية الفهم وتوصيل الرسالة على خير وجه. ومن هنا جاء النص على الخط الذى فى مكنته - إن جاء واضح الرسم جيد النسج جميل القد - أن يعوض ما فاته ولم يحظ به من مميزات النطق، فيقترب القبيلان أو يتساويان، حسب الظرف والحال.

وختمت قائمة علوم الأدب بفرعين من المعرفة لهما دورهما البالغ الأهمية في صناعة الأدب عامة وفي تفعيل آثاره، بحيث يحظى بموقعه المتفرد في دنيا الكلام، ويصنف أدباً بالمعنى الدقيق. هذان الفرعان هما الإنشاء والمحاضرات. فالإنشاء هنا مصطلح يقصد به الخبرة الكافية والدربة اللازمة على طرائق تأليف الكلام - المكتوب منه على وجه الخصوص - وحسن التصرف في هذه الطرائق، وفقاً لكل قواعد تأليف الأدب. أما المحاضرات فإن الاهتمام بها موجه إلى المتعاملين بالأدب المنطوق في الأساس. وفي رأينا أن المقصود «بالمحاضرات» هنا هو كيفيات أداء الكلام نطقاً في مواقف عامة أو خاصة، يحضرها جمع من الناس بغية الإفادة أو استزادة المعرفة. ومعلوم أن أداء الكلام نطقاً أو الإلقاء فن لا يستطيعه إلا القليل من الرجال. فالكلام لا يلقى على مستوى واحد، وإنما تكسوه نغمات وارتفاعات وانخفاضات. وتختلف هذه الخواص كلها من موقف إلى آخر، وتحتاج إلى خبرة ودربة للوفاء بها، وفقاً لسياق المقال، وهو الكلام مبنى ومعنى، وسياق الحال، وهو المقام الذي يلقى فيه هذا الكلام.

وهكذا يتبين لنا أن حسبان «الإنشاء والمحاضرات» بالمفهوم الذي ذكرنا من علوم الأدب، أمر مقبول بل ضروري لتجويد الكلام وتصنيفه أدباً بالمعنى الدقيق، سواء أكان مكتوباً (في حال الإنشاء) أم منطوقاً (في حال المحاضرات).

وهكذا أيضاً يتضح أن ما رآه هذا النفر من المتقدمين من أن هذه الفروع المعرفية المذكورة (اللغة - الصرف - النحو ... إلخ) هي علوم الأدب، رأي سليم بل دقيق. إنهم أدركوا - منذ البدء - أن الأدب بناء متكامل، له لبناته وقوائمه وأركانه، ولا يكون هذا البناء، ولا تشكل هيئته بحال ما لم تكن هذه اللبنات والقوائم والأركان حاضرة، ومعدة إعداداً مستقيماً، وافياً بالوصول إلى غايات المنشئ المتمثلة في الظفر ببناء أدبي جيد. ومن هنا جاء تركيزهم على

الاهتمام بمواد البناء، فإنها إن صلحت صلح البناء. وبهذا يكون الفرق بينهم وبين الآخرين فى تحديد مفهوم الأدب فرقاً شكلياً، فالكل يعنى بالأدب «الجيد أو الجميل من القول نثراً وشعراً»، وإن سلك فريق منهم نحو هذا التحديد مسلكاً عاماً مجملاً، وآثر الآخرون تفصيل القول فى ذلك، فالتقى القبيلان فى النهاية عند هدف واحد.

والواقع أن ما قاله هؤلاء وأولئك حق وصدق، وإن كنا - فى هذا السياق بالذات- ننحو فى تحديد مفهوم الأدب منحى أوسع وأعم، لتغطى مظلته مجمل فنون القول وضروبه الموجهة إلى طبقات المجتمع كافة، بقطع النظر عن المستويات الثقافية والاجتماعية الفارقة بينها.

نقصد بالأدب فى مقامنا هذا «كل رسالة منطوقة أو مكتوبة، تنتظم أفكاراً ومبادئ إنسانية تهذب وتصقل وتزيد المعرفة والخبرة، وترشد وتنبئ وتعلم أيضاً». هذا من حيث المضمون وخواصه الدلالية التى تميزه من أنواع الكلام الأخرى التى تجرى بين الناس فى حياتهم العادية، ويتحاورون بها لتصريف شئونهم اليومية وتسيير عجلة الحياة، ويحققون بذلك الوظيفة الأساسية للغة، وهى فكرة التواصل والتوصيل وربط أفراد المجتمع بعضهم ببعض.

أما من حيث الشكل والتعبير، فلسنا نصنف الكلام أدباً إلا إذا جاء مصوغاً بلغة واضحة ترشح نفسها للفهم والاستيعاب من المستقبلين، بقطع النظر عن المستوى المعين الذى تحاك به. قد يكون الكلام «فصيحاً» (بالمعنى التقليدى المعروف) أو عامياً، ولكل لون منهما مقامه وظروفه وبيئته الاجتماعية والثقافية، ومن ثم يحسب كل من اللونين صحيحاً وفصيحاً فى إطاره وفى حدود مواقعه فى المجتمع المعين.

هذا الذى نقول بالنسبة للمستويات اللغوية المختلفة من حيث القبول والصحة بل والفصاحة أيضاً يتماشى مع المبدأ اللغوى الأكاديمى العام المعبر عنه

بالعبارة المشهورة «كل كلام فى بيئته صحيح فصيح». ومن هنا ساغ وصح أيضاً إطلاق المصطلح «الأدب الشعبى» على تلك الألوان اللغوية المنسوجة بالعاميات أو اللهجات المحلية، اعتماداً على ما تتضمنه هذه الألوان من قيم ومبادئ وأفكار وخبرات إنسانية، شأنها فى ذلك شأن تلك الألوان الموسومة بالفصحى أو الفصيحة فى العرف التقليدى الشائع. ومعنى هذا أن الحكم بأدبية الأدب الشعبى جاء مبنياً على مضامينه وأفكاره فى الأساس.

وللأدب - بأى معنى أخذت، مصوغاً باللغة الفصحى، أو منسوجاً بالعاميات واللهجات - أدوار ذات أهمية بالغة فى المجتمع، من حيث التثقيف والتهذيب وتقديم الخبرة وزيادة المعرفة ... إلخ، وهى أدوار تحتاج إلى نظر واع ودراسات علمية منوعة من أهل الاختصاص فى علوم التربية والاجتماع والنفس، وما إلى ذلك من فروع المعرفة التى تشغل نفسها بالإنسان وهمومه، وتحاول أن تنير له الطريق، ليسير على منهج سواء، يضمن له الوفاء بخواص إنسانيته، ويرشحه لإنجاز مسئولياته فى هذه الحياة المتمثلة فى إعمار أرض الله والانتفاع بخيراتها وعطائها.

ولكنا هنا سوف نقصر حديثنا على دور واحد، هو بمثابة قطب الرحى الذى تلف حوله سائر الأدوار، وبه تكون وتبرز آثارها وتنشط فعالياتها. هذا الدور هو دور الأدب فى تجميع العرب على كلمة سواء، قوامها وحدة الفكر والرؤى والاتجاه والقصد، أو - فى الأقل - التصالح والحوار بين ما يغشى الأرض العربية من نزعات نافرة أو ميول ناشزة تحتاج إلى هتاف أدبى صادق مخلص، حتى تفىء النوافر والنواشز إلى ركن الجماعة، فتدعم بنيانها وتحتمى بقوتها ومنعتها. ومن هنا كان العنوان «الأدب ودوره فى التلاقى العربى وتأكيد الانتماء».

ووفقاً لهذا الذى القول نقول، سوف يدور الحوار فى الأساس حول ما صنعه

ويصنعه الأدب العربى فى هذا المجال، ونعنى به الأدب المنسوج بلحمته وسداه باللغة العربية الفصيحة الصحيحة؛ إذ هى اللغة الموحُدة (بفتح الحاء) والموحِّدة (بكسرها). إنها اللغة القومية، لغة العرب كافة التى تميزهم من غيرهم من الأمم، وبها يعرفون وإليها ينتسبون.

وليس هذا يعنى إنكار دور الأدب الشعبى فى التلاقى شعوراً ووجدانا بين الناس فى بيئته الخاصة، بل قد يتعدى دوره فى هذا الشأن إلى مجتمعات أوسع وأبعد قليلاً أو كثيراً. ذلك أن هذا الأدب المصنوع بالعاميات أو اللهجات المحلية لا يخلو من قيم إنسانية ومبادئ سامية، لها أثرها فى تقديم الخبرة وطرح الحكمة والتهذيب والتثقيف. إن حكاياته وقصصه وأمثاله و «مواويله»، مشحونة بما يساوق خواص الإنسان من قيم وسلوك اجتماعى طيب؛ كتقديم العبرة والنصيحة والإرشاد أو التحذير من ارتكاب الأخطار أو الوقوع فى الأخطاء.

وليس فى استطاعتنا تجاهل حكايات هذا الأدب التى تروى قصص الأبطال والبطولة العربية، اعتزازاً وفخراً، وهو الأمر الذى يشحن النفوس بالعزة والأمل، ويبعث على الثقة بالنفس، ويشد أزر القوم، ويدفعهم إلى مذاكرة ماضيهم وأحوال حاضرهم، فينادى القريبُ والبعيدَ، هاتفين بالتلاقى والانتظام فى صف واحد، معتزّ بماضيه، مؤمل فى حاضره ومستقبله.

ومما يذكر للأدب من مناصرة القومية والالتفاف حولها، ما كان يصنعه شعراء هذا اللون من الأدب من شعر وقصص حماسية، يدفعون بها أو يلقونها على الجيوش العربية، تشجيعا وتذكيراً لهم بالنماذج الشجاعة من بنى قومهم فى تاريخهم الطويل، وحثا لهم على التضحية والإقدام فى ميادين الوغى حتى النصر المبين. يروى التاريخ أنه فى أثناء الحروب الصليبية اتسعت رقعة المعارك بين العرب وخصومهم، وتركت هذه الحروب تأثيرها فى النفوس،

بحيث تعمقت العقلية الشعبية العربية ووجهتها إلى التعبير عنها، واستخلاص النتائج والعبر منها. وكان - ولا يزال - الأدب الشعبى ثمرة هذا الحدث الكبير يمثل دروساً نافعة ويطرح خبرات واسعة تفيد منها الأجيال المتعاقبة فى التعامل مع الأعداء فى الحروب، من إعداد وتدريب وتنظيم، ورسم خطوط الكر والفر أو المباغتة، وبث الطلائع ذات الدور البارز المهم فيما يعرف بالحرب النفسية.

لهذه الأدوار - وغيرها كثير - كان اهتمام الدارسين بالأدب الشعبى، حتى أصبح علماً فى كثير من بلدان العالم شرقاً وغرباً. وما نظن أن الأخوين «جريم» كانا يعبثان أو يلهوان ويتسليان، عندما أمضيا نحو خمسين سنة من حياتهما يجمعان نصوص الأدب الشعبى الألمانى ويؤلفان حولها، بصدق وإخلاص ومتعة أيضاً. لقد صنعا ذلك وأنجزاه خدمة للوطن، على حد تعبير بعض الدارسين.

وخلاصة القول فى ذلك كله أن الأدب الشعبى نتاج إنسانى، يخاطب الإنسان من حيث هو إنسان، بقطع النظر عن بيئته وقومه. إن حكاياته وقصصه تستطيع أن تثير خيال الإنسان وتوقظ أحلامه، بحيث يسعى فى طريق الخير والنور، قاصداً إلى ما يمكن أن يفى بخواصه، من التآلف والتحاب وتبادل المنافع. ولا يكون ذلك كله إلا بالتقارب لا التباعد فى الإحساس والشعور، والتلاقى بين الآخرين فى الفكر والاتجاه.

وربما يؤكد ما نقول من أن الأدب الشعبى يخاطب الإنسان من حيث هو إنسان، ما نلحظه فى أحيان كثيرة من وجود تشابه النفس الإنسانية هنا وهناك، يظهر ذلك بوجه خاص فى ذلك اللون من الأدب الشعبى المعروف «بالأمثال». وهذه أمثلة قليلة منها سمعناها ونسمعها فى مصر، ونراها بذاتها (فى المضمون فى الأقل) منتشرة فى بلدان عربية أخرى، دليلاً على وحدة الطبع وتقارب الفكر أو وحدته فى التراث الشعبى.

١ - أمثـــال مصـــرية ســـودانية :

فــى مصـــر	فــى الســـوادن
* إيد على إيد تساعد * الإيد الواحدة ما تسقفش * ما قدرش على الحمار تشطر على البردعة	* إيد على إيد تجدع بعيد (أى ترمى بعيداً) * الإيد الواحدة ما بتغسل الضهر * عينو فى الفيل يطعن فى ضله

وفى مصر والسودان معاً يقولون: مين يعرف عيشة فى سوق الغزل؟

٢ - أمثال مصرية شامية :

فــى مصـــر	فــى الشام
* اسم بلا جسم * يدّى رزقه لأوحش خلقه. * إيه تعمل الماشطة فى الوش العكر	* ها الاسم غلب ها الجسم. * ربنا بيعطى رزقه لأبخس خلقه. * شو بتعمل الماشطة مع الوجه العكش.

٣ - أمثال مصرية مغربية :

فــى مصـــر	فــى المغرب
* اذكر الكلب وفى إيدك عضمة * الغالى تمنه فيه * إذا كان المتكلم مجنون يكون المستمع عاقل.	* اذكر الكلب ووجد له عظم * كيل الغالى ولو كان غالى * إذا كان المتكلم مهبول يكون المنصت عاقل (١)

هذه النماذج القليلة من الأمثال الشعبية العربية تفصح خير إفصاح عن تقارب البنية الثقافية، بل وحدتها، بين العرب، بقطع النظر عن ديارهم وبيئاتهم الجغرافية، وهو الأمر الذى يشير إلى التلاقى فى الذوق والرؤية، دليلاً على الانتماء إلى «بيت واحد» أو اتجاه فكرى واحد، هو العروبة، أو ما نسميه نحن بالعورية. ومعنى هذا أن الأدب الشعبى بفنونه وأشكاله كافة له دوره البارز فى التواصل والتقارب بين الفصائل العربية، وهو بهذا جدير بالنظر والاهتمام

(١) هذه الأمثال الشعبية العربية منقولة عن كتاب «الحكايات والأمثال» للأستاذ رشدى صالح، دار الكتاب العربى للطباعة والنشر، القاهرة.

فى مقامنا هذا، ولكنا آثرنا هنا الانصراف إلى الأدب العربى العام المصوغ بلغة العرب كافة، وهى الفصحى أو الفصيحة؛ إذ إنه بهذه الخاصة المميزة نتاج الفصائل العربية كلها بلا فرق، ويخاطبهم أمة واحدة، لها كيانها وشخصيتها.

إن دور الأدب فى إبراز خواص الإنسانية وتنميتها وتفعيلها فى كل زمان ومكان، يحسب عند العارفين دوراً بالغ الأهمية. إنه بطبيعته خير داع إلى التلاقى والتواد والتفاهم والتصالح والحوار. وهذه كلها (وغيرها كثير) هى قوام البناء الاجتماعى وأساسه الذى يعتمد عليه ويتشكل، بصورة تحقق للإنسان طبيعته الاجتماعية التى لا تظهر آثارها وقيمها إلا بالعيش فى جماعة صغيرة أو كبيرة على حد سواء.

والأدب العربى بالذات حافل بالنماذج التى تؤكد هذا الدور، وتبرزه فى أجلى صورة، كما لو كان خاصة ذاتية واتجاهاً قوميا عاما ومنهجاً مرسوماً، يحرص على الوفاء بأغراضه وغاياته كل من ندب نفسه لصناعة الكلمة التى من شأنها أن ترشد وتنبه وتهذب وتثقف، هادفة بذلك إلى إشاعة أنماط من السلوك عامة، وإلى بث أفكار ومبادئ إنسانية يستجيب لها الأسوياء من البشر.

وكلمة هذا موقعها وتلك وظائفها ميسور أثرها ودورها فى تقريب الشقة وتمكين الألفة وتنسيق الرؤية والاتجاه فى السلوك والفكر، وهو الأمر الذى يؤدى - فى النهاية - إلى التلاقى فى الطبع والصنع، وإلى الانتماء إلى حصن واحد، يحمى أصحابه من عوادى الزمان، وتجمعهم عَددا وعُدداً تحت مظلة واحدة؛ وهذه المظلة موسومة فى العرف العام بالقومية.

والملاحظ أن الكلمة الأدبية العربية الصانعة لهذا كله والهادفة إلى الظفر بهذه الغايات، ذات ألوان وصور من فنون القول مختلفة. قد تكون وصية أو حواراً أو حكمة أو مثلاً، نثراً وشعراً فى القديم والحديث على حد سواء. وقد يتخذ الأدب مساراً آخر فى الوصول إلى هذه الغايات والأهداف، كما فى

الإشارة إلى مبدعيه وصانعيه، تسجيلاً لمآثرهم واعترافاً بمواقعهم وأفضالهم فى هذا المجـال. وليس من التـجـاوز أن نضم إلى هذه الألوان والمسـارات الأدبيـة ما يجـرى ويصنع فـى مـجـمل اللقـاءات العربيـة، فى صـورة ندوات ومؤتمرات علمية أو ثقافية أو سياسية أيضاً. فكل هذه الألوان والصور لبنات يشد بعضها بعضاً، وتتآلف فيما بينها لصنع البناء القومى العام الذى ننشده، منعة وقوة ومتعة كذلك.

وعندنا أن لبنات التلاقى والتآخى تبدأ بالتربية الأولى فى الأسرة وما يجرى فى جنباتها وأجوائها من سلوك فى القول والفعل. وعندنا أيضاً أن الأسرة هى اللبنة الأولى فى بناء المجتمع الصغير أو الكبير وتشكيله بالصورة أو الصور التى خَطَّتْ أساسياتها وقوانمها هناك. والتاريخ يروى والواقع يؤكد أن ما يجرى فى الأسرة الصغيرة من سلوك قولى أو فعلى، لابد له - بحكم طبيعة الإنسان - من أن يمتد أثره وينتشر، متجاوزاً هذا النطاق الضيق إلى أجواء أوسع وأرحب. ويظل هذا السلوك فى الامتداد والاتساع حتى تغطى نماذجه وفعالياته كل فصائل القوم المنتمين إلى المجتمع الوطنى أو القومى المعين، بحكم اشتراكهم فى خواص حياتية معينة، تميزهم من غيرهم من مجتمعات ذات خواص فارقة .

ومن اللافت للنظر أن الأدب العربى - قديمه وحديثه - مشحون بالنماذج التى تفصح عن هذا المسار المتدرج فى سلم التلاقى والانتماء، وتصوره واقعاً حيا، أو تدعو إلى ضرورة الأخذ به، وتهتف بحتمية اتباعه، وصولاً إلى الغاية المتمثلة فى تشييد بناء متناسق الوحدات، متآلف الجنبات.

وفى استطاعتنا أن نقتطف أمثلة من هذه النماذج التى تؤيد زعمنا أن الأدب رسالة إنسانية تُصلح ولا تُفسد، تبنى ولا تهدم، وتدعو إلى الوفاق والعيش فى أمن وسلام.

يطالعنا فى البدء ذلك الموقف الراشد الذى صنعته أعرابية مع ابنتها ليلة زفافها؛ احتضنتها وهمست فى أذنها بحبات من جواهر الكلم التى تصنع دستوراً من المبادئ والقيم التى تكفل لها ولمجتمعها الجديد الصغير الاستقرار وراحة البال، وصولاً إلى التآلف والتكاتف لصنع اللبنة الأولى والأساسية فى تشكيل المجتمعات الأكبر والأوسع التى تقوم على شاكلتها، وتتخذ منهجها فى البناء.

تقول الأعرابية توصى ابنتها فى هذه الليلة الفارقة بين عهدين مختلفين:

«أى بنيتى! إنك فارقت الجو الذى منه خرجت، وخلفت العش الذى فيه درجت، إلى وكر لم تعرفيه وقرين لم تألفيه. فاحفظى له خصالاً عشراً يكن لك ذخراً.

أما الأولى والثانية، فالخشوع له بالقناعة وحسن السمع له والطاعة. وأما الثالثة والرابعة، فالتفقد لبزته والاهتمام بحاله، فلا تقع عينه منك على قبيح ولا يشم منك إلا أطيب ريح.

أما الخامسة والسادسة، فالتفقد لوقت منامه وطعامه؛ فإن تواتر الجوع ملهبة، وتنغيص النوم مغضبة. أما السابعة والثامنة، فالاحتراس بماله، والإرعاء على حشمه وعياله، وملاك الأمر فى المال حسن التقدير، وفى العيال حسن التدبير.

أما التاسعة والعاشرة، فلا تعصن له أمراً، ولا تفشن له سراً. فإنك إن خالفت أمره أوغرت صدره، وإن أفشيت سره لم تأمنى غدره».

وتمتد فعاليات الأدب فى هذا المجال، مجال الدعوة إلى التلاقى والتجمع والوفاق إلى بنى اجتماعية أخرى، متدرجة فى الحجم والاتساع، حتى تشمل فصائل القوم، صغيرها وكبيرها، بوصفهم ذوى نسب ورحم، يشكلون فى النهاية بناء متكاملاً ذا سمات وخصوصيات تُنعت بالعروبة.

يقول «معن بن زائدة»، موجهاً النصح إلى بنيه فى مجتمعهم الصغير الذى لابد له - بالطبع والصنع - من أن تتسع جوانبه وتمتد فى المستقبل القريب أو البعيد:

كونـوا جميعاً يا بنىّ إذا اعترى ... خطب ولا تتـفـرقـوا آحـادا

تأبى العصى إذا اجتمعن تكسرا ... وإذا افـتـرقن تكسـرت أفـرادا

وفى المعنى نفسه، وإن بعبارة أخرى، يقول ناهض الكلابى:

ألم تر أن جمع القوم يُخشى ... وأن حـريم واحـدهم مـبـاح

وأن القـدح حين يكون فـردا ... فـيـصـهـر، لا يكون له اقـتـداح

وتستمر فعاليات الأدب، مخاطبة البناء الأكبر الذى تتآزر ألوان الأدب وفنونه فى الدعوة إلى تشكيله وتثبيت أركانه، ألا وهو «العروبة»؛ يقول «محمد الفراتى»:

إن العروبة تدعوكم بوحدتها ... فحققـوا ما به للحق ترجونا

فوحدة العُرب تُنشينا وتبعثنا ... بعثاً جديداً على الدنيا وتحيينا

وإنه لمما يذكر فيشكر صانعه، أن محمد إقبال الشاعر الباكستانى الرفيع موقعه والعميق أثره فى دنيا الأدب، قد وجه خطابه الداعى إلى التلاقى إلى المسلمين كافة، عرباً وغير عرب، مؤملاً فى وحدة أسمى وأرقى؛ هى وحدة المجتمع الإسلامى كافة.

يقول «إقبال»:

وفى التوحيد للهمم اتحاد ... ولن تبنوا العلا متفرقينا

ألم يُبعث لأمتكم نبىّ ... يوحدكم على نهج الوئام

ومصحفكم وقبلتكم جميعا ... منار للأخوة والسلام

وفى هذا الذى يهتف به هذا الشاعر العظيم امتثال واستجابة صريحة لنص القرآن الكريم المصدر الأول فى إرساء قوائم التلاقى بين المسلمين بالاعتصام بدين الله، كما يشهد بذلك قوله تعالى: ﴿واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا﴾، وفيه أيضاً اتباع لمنهج رسول الله ﷺ فى أفعاله وأقواله الداعية كلها إلى الوفاق والوئام، حتى يقوى البناء وتشتد أركانه، ويغدو المسلمون كالجسد الواحد، كما فى قوله ﷺ:« المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً»، وقوله ﷺ:«مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالحمى والسهر».

ومن اللافت للنظر أن الأدب لم تقف رسالته عند التغنى بأمجاد العرب وحفزهم على الاحتفاظ بهذه الأمجاد، بانتهاج مناهج العزة والقوة، من لم الشتات وتوحيد الصف وتلاقى الرؤى والاتجاهات وتأكيد الانتماء إلى حصن واحد، حصن العروبة، وإنما نحا نحواً آخر مهما فى هذا الشأن، وإن بتغيير الخطاب وتنويع نغماته مبنى ومعنى، بحسب الظروف والحال. لمس الأدب فى رسالته إلى قومه ما يصيبهم من وقت إلى آخر من مظاهر الضعف والهوان والاستكانة لأسباب داخلية أو خارجية معاً، مفصحاً عن الأسى والحزن، محذراً فى الوقت نفسه من مغبة هذه السوأة، داعياً إياهم بحزم وقوة إلى الاستيقاظ من غفلتهم، وانتهاز الفرصة قبل فوات الأوان.

يقول إبراهيم اليازجى ضمن ما يقول فى هذا الشأن :

تنبهوا واستفيقوا أيها العرب ... فقد طمى الخطب حتى غاصت الركبُ
فيم التعلل بالآمال تخدعكم ... وأنتمُ بين راحات القنا سُلُبُ
الله أكبر، ما هذا المنام فقد ... شكاكم المهدُ واشتاقتكم التُّرَبَ
كم تُظلمون ولستم تشتكون، وكم ... تُستغضبون فلا يبدو لكم غضبُ
ألفتم الهُون حتى صار عندكم ... طبعاً وبعض طباع المرء مكتسبُ
وفارقتم لطول الذل نَخوتكم ... فليس يؤلمكم خسْف ولا عطبُ

إلى أن قال:

فشمّروا وانهضوا للأمر وابتدروا   من دهركم فرصة ضنّتْ بها الحقبُ

لا تبتغوا بالمنى فوزاً لأنفسكمْ   لا يصدق الفوز ما لم يصدق الطلبُ

وفى هذا السياق يقول محمد التهامى شاعر العروبة المعاصر:

يشرقُ الصبحُ فيمحو الرّيَبَا   غربًا كُنّا ونبقى الْعَربَا

نحن أهلُ الشرق من ميلادهِ   هُوَ مِنّا وإلينا انْتَسَبَا

إنْ جَذبْتُم شَعْرَةً من أرضهِ   جَذَبَ الكونُ لَنَا واقْتَرَبَا

رُوحُنا فيه وفينا رُوحُه   ويقينًا إن ذَهَبْنَا ذَهَبَا

إلى أن يقول :

لم نَعُدْ نَدْرِى أَهَذِى دَارُنا   أَمْ ديارٌ عَاثَ فيها الغُرَبَا

يتمنّى الحُرُّ مِنْ أبنائِها   أنّه مِنْ دارِهِ قد هَرَبَا

قد كَرِهْنَاها وأنتم فَوْقَها   ولو نَثَرْتُم فى رُبَاهَا الذَّهَبَا

وهكذا كان الأدب (ويكون) ديوانَ العرب، حاكياً لأحوالهم، مغنيا فى أفراحهم، معزيا فى أحزانهم، باعثاً فى نفوسهم روح التآخى والتآلف، وفى وجداناتهم وقلوبهم حتمية الأخذ بأسباب الاتفاق لا الافتراق، ووحدة المسيرة إلى الغايات التى تجسد صرحاً ذا خصوصيات موسومة بالعروبة.

تلك رسائل الأدب وأدواره فى كل العصور المتلاحقة، بقطع النظر عن بيئة صانعيه وظروف صنعه واختلاف نواديه. ومن اللافت للنظر، بل المدهش حقا، أن هذه الرسائل والأدوار المتعاقبة على مر الزمان ذات نسب قريب وأصل قديم تعود إليه وتستمد منه وجودها واستمراريتها.

يتمثل هذا النسب وذلك الأصل فى «الأسواق الأدبية» ذات التاريخ الماجد فى العصور العربية الزاهرة الزاخرة بأنهار الأدب وملاحيها. كانت هذه الأسواق معارض لعادات القوم وتقاليدهم وأحوال معيشتهم الاجتماعية. وكان للأدب النصيب الأوفى فى العرض والتسويق والتأثير. ذلك - كما هو معروف - أن الأدباء والشعراء كانوا يحجون إلى هذه الساحات لعرض بضاعتهم التى تحكى أمجادهم وأمجاد مضاربهم وقبائلهم، فخراً واعتزازاً بعبقرياتهم الأدبية وتفوقهم فى هذا الصنيع، ويأخذ الرواة عنهم ما شاء لهم أن يأخذوه، شأنهم فى ذلك شأن رجال الصحافة والإعلام، ينشرون ويذيعون على الأقوام هنا وهناك. وبهذا النهج المطبوع لا المصنوع، كانت هناك فرصة ذهبية لمد حبل الوصل بين القبيلين المنشدين والمرسلين (وهم الأدباء والشعراء) والمتلقين (وهم الجماهير)، فيكون التأثير والتأثر فى الفكر والاتجاه، ويكون الالتقاء حتميا فى الشعور والوجدان بصورة من الصور.

أضف إلى هذا أن أسواقاً معينة كانت لها آثار أخرى، بعيدة المدى فى الفكر العربى، وفى تعميق ثقافات اجتماعية منوعة، انتصرت على الزمان، وتربعت على أمواج حقبه المتعاقبة، حتى تلقيناها ونعمنا بخيراتها حتى الآن.

ففى سوق عكاظ مثلاً، كان هناك حلقات النقاش والحوار فيما يقال ويسمع بين المنشدين والحاضرين، إظهاراً للبراعة والتفوق فى المعرفة، أو رغبة فى الوصول بالعمل الأدبى إلى مرتبة الكمال والامتياز. كان هناك «النابغة» السيد الحكم العالى المرتبة، يسمع ويستوعب، ويناقش وينقد ويرشد ويوجه، حتى قيل إن صنعه هذا الذى ابتدع وابتكر كان الانطلاقة البكر للنقد الأدبى فى دنيا العرب. وكلنا يعلم أنه كان حاضراً وكان له رأى فيما جرى من حوار بين الخنساء وحسان بن ثابت، حين أنشد قصيدة له وسألته الخنساء عن أجود بيت فيها، فقال:

لنا الجفنات الغُرُّ يلمعن فى الضحى وأسيافنا يَقْطرن من نجدة دما

فقالت له يا ابن أخى لقد أضعفت كلامك ونزرته فى ثمانية مواضع، وألقت إليه برأيها فى هذه المواضع، على ما هو مسجل فى تراثنا الأدبى العظيم.

وكان هناك الخطباء المُفَوَّهون، وعلى رأسهم «قس بن ساعدة» الخطيب المبرز، الرفيع الذكر والقدر فى الفصاحة والبيان، المسيطر على جواهر الكلم فى التوجيه والإرشاد، كما يظهر ذلك مثلاً فى خطبته التى ابتدأها بقوله الحصيف الحكيم فى سياقنا هذا: «أيها الناسُ اجتمعوا واسمعوا وَعَوا...».

أما سوق «المربد»، فحدّث عنها ولا حرج، فقد كانت محفلاً أدبيا اجتماعيا، يتسابق إليه الناس على اختلاف طبقاتهم وبيناتهم، شيباً وشباناً، أدباء وشعراء ولغويين. كانت واسطة العقد المنسوق من حبات متآلفات من ألوان الثقافة والتلاقى بين روادها فى تبادل المنفعة وزيادة المعرفة. إنها عرفت بمنارة العراق ودرة البصرة، حتى قيل فى حقها: «العراق عين الدنيا، والبصرة عين العراق، والمربد عين البصرة».

وإلى المربد كان يسارع العلماء والنحاة لملاقاة الأعراب وأخذ اللغة عنهم مشافهة، كما كانت ساحة مشهودة مشهورة للمعارك الأدبية بين جرير والفرزدق، ووجد الرواة فيها ضالتهم من مادتها الأدبية واللغوية يمتاحون ويغترفون، ثم ينقلبون هنا وهناك راوين لما سمعوا واستوعبوا فى شتى البقاع والأصقاع، تثقيفاً للأقوام، وصقلاً وتزويداً لمعارفهم، ونشراً للفكر والتقاليد العربية؛ وهو الأمر الذى أدى، أو الذى من شأنه أن يؤدى، إلى تقريب الشقة، والالتفاف حول أنماط من السلوك تجمع بينهم وتحمى هويتهم.

ومعلوم أن دور الأسواق الأدبية فى التلاقى العربى لم يقتصر على تعميق الفكر الأدبى ونشره وصنع لبنات البناء القومى فحسب، بل امتد أثره إلى نواح اجتماعية أخرى، تزيد من قوة هذا البناء، وتكسبه ألواناً من الطلاء تمنحه

أمارات الانتماء وخصوصيات الجماعة. كانت هذه الأسواق فى مجملها ساحة للتعارف وتبادل المنفعة، ونشر روح الود والائتلاف، إذ كانت ساحات للتجارة ومحافل للتزاوج والندوات أو الاجتماعات السياسية التى تقضى فى أمور كثيرة من أحوال القوم، وفى مقدمتها فض النزاعات وتذويب الخلافات بالتصالح والوفاق.

وإن ننس فلا ننسَ فى هذا المجال أن نشير بشىء من الإيجاز إلى دور هذه الأسواق وتأثيرها فى أهم ركن من أركان البناء، وأقوى دعامة وآكدها لتثبيت هذه الأركان؛ ونعنى بذلك اللغة.

كانت المباريات حامية والتسابق محموماً، بين المنشدين فى هذه الأسواق من خطباء وشعراء، فى الإتيان بكلامهم فى صورة لغوية ذات درجة عالية من الفصاحة والصحة، قصداً إلى إظهار البراعة فى القول، وتوصيل أفكارهم وما احتوته رسائلهم من مضامين إلى المتلقين فى سهولة ويُسر، حتى يظفروا بالالتفاف حولهم وجذبهم إلى مواقعهم، والتغنى برسائلهم مبنى ومعنى.

ولا يكون ذلك ولن يكون إلا بانتهاج منهج لغوى عام، خال - قدر الإمكان - من الظواهر والرطنات اللهجية الخاصة التى يعسر فهمها أو استيعابها على المتلقين. ومعلوم ما كان يصنعه بعض الشعراء من العود إلى قصائدهم مرة ومرات، قد تستغرق حولاً كاملاً فى المراجعة والتجويد والتدقيق فى نظمها وانتظام أسلوبها وطرائق تشكيله، حتى تظفر أعمالهم بالجودة أو الامتياز، والقبول من السامعين، ومن ثم سميت هذه القصائد بالحوليات.

كان هذا النهج - بطبيعة الحال - من أعمق السبل وأقربها منالاً إلى التقريب بين اللهجات المختلفة باختلاف البيئات والثقافات لرواد هذه الأسواق النازحين إليها من مضاربهم وديارهم المنتشرة هنا وهناك.

وكانت النتيجة فى النهاية الوصول إلى مستوى لغوى ينحو نحو العمومية، وصل فى نهاية المطاف إلى ما يمكن تسميته «اللغة المشتركة» التى عرفت

آنذاك، واستمر العرف حتى الآن ينعتها «العربية الفصحى»، التى تجمع العرب على لسان واحد.

ومن المقرر - لغويا واجتماعيا وثقافيا - أن اللغة الموحدة لها النصيب الأوفى، بل هى العامل الأساسى فى توحيد الفكر والاتجاه، وتقريب أنماط السلوك؛ وهو الأمر الذى يقود حتماً إلى الترابط والتآلف والتلاقى فى القصد والغاية وتأكيد الانتماء إلى حصن واحد، يضم الفرقاء فى حوزته، ألا وهو «العروبة» فى حالتنا نحن العرب.

هكذا كانت الأسواق الأدبية، وهكذا كان دورها وتأثيرها الذى امتدت نفحاته ومست روحه وأرواحه الجو الأدبى العربى على امتداد العصور حتى وقتنا هذا الذى نعيش فيه، وإن كان هذا الدور وذاك التأثير قد سلكا مسالك مختلفة فى الشكل والهيئة والإنجاز والتفعيل. ففى العصر الحديث برزت إلى الوجود محافل أدبية من نوع آخر، تساوق الزمان المتلاحق وتطوراته، وتتجاوب مع ظروفه وأحواله، وتشبع مذاق رواد هذه المحافل. ظهر ذلك مثلاً فيما عرف بالصالونات الأدبية التى تجمع الصفوة من الأدباء والمفكرين وحواريهم من شباب الشادين، حيث تتحاور الأجيال، ويحظى الجمع بروح الألفة واكتساب الخبرة وزيادة المعرفة. وامتدت ظلال هذه التجمعات الضيقة نسبيا إلى دوائر أوسع وأعمق أثراً فى صورة الندوات والمؤتمرات، حيث تفتح الأبواب على مصاريعها للعامة والخاصة على حد سواء.

وَصَاحَبَ هذا النشاطَ، ويصاحبه بصورة أوسع، ظهور الصحف والمجلات الأدبية فى مختلف البيئات العربية، وعلى رأس كل ذلك - انتشاراً وعمقاً وتأثيراً - مجلتا «الرسالة» و«الرواية» اللتان تحسبان - فى نظرنا - بمثابة مدارس أدبية جماهيرية متنقلة هنا وهناك فى الوطن العربى على اتساعه وترامى أطرافه.

ولا يستطيع أحد أن ينسى أو يتناسى تلك الفترة الزاهرة من الزمان الجميل فى مصر الحديثة، حين سجلت الخريطة العربية بحروف من ذهب أسماء الطهطاوى وحسن العدل ومحمد عبده وعبد الله النديم وقاسم أمين وفتحى زغلول والعقاد وطه حسين والمازنى والحكيم والجارم وشوقى وحافظ والزيات ونجيب محفوظ، ورفاقهم فى الصنع والتأثير ممن لا تحصى الذاكرة أسماءهم. كان هؤلاء، وإخوانهم فى البلاد العربية الأخرى، ومازالوا، رواد النهضة الفكرية والأدبية، ومازالت أعمالهم وآثارهم منارات تهدى، ومشاعل ناهضة تلتف حولها الأجيال من أبناء العربية، وصولاً إلى تشكيل بناء موحد فكراً واتجاهاً.

ومن اللافت للنظر والباعث على الاعتزاز والتقدير، ما كان يجرى على الساحة المصرية فى النصف الأول من القرن العشرين من نشاط أدبى من نوع فريد. ذلك أن الأحزاب السياسية كانت - بحكم مسئولياتها نحو الجماهير العريضة - تعقد لقاءات أدبية من فترة إلى أخرى، يؤمها الغادى والرائح، وطلاب العلم على وجه الخصوص. كانت هذه اللقاءات أشبه بأندية أدبية، يتكلم فيها الكبار ويعرضون، والشباب يحاورون ويناقشون. أثمرت هذه اللقاءات ثمارها، وشجعت الشباب وحفزتهم إلى المزيد، حتى إن بعضهم نبغ فى الاستيعاب واكتساب الخبرة، وكتب له التوفيق والنجاح فى الأسواق الأدبية، وصار شيخاً فى صناعة الأدب، بارزاً فى فنون القول والأداء.

ومما يذكر فى هذا المقام أيضاً أن كبار الساسة والمسئولين فى هذه الفترة، كانوا يتسابقون فى الإتيان بكلامهم وخطبهم وبياناتهم الموجهة إلى الجماهير بلغة عربية فصيحة، منظومة بأسلوب أدبى؛ وهو الأمر الذى جعل من الأدب والانشغال بفنونه بضاعة رائجة، حتى وصلت هذه الروح الطيبة إلى أعلى المستويات السياسية فى العالم العربى.

يذكر العارفون من الأحياء ذلك اللقاء القومى العظيم الذى سجله التاريخ

بداية حقيقية للتلاقى العربى المكين، بل بادرة الوحدة العربية فى أدق معانيها. ونعنى بذلك حفل تأسيس الجامعة العربية، بيت العرب الذى يجمع الفصائل والقبائل فى مكان أمين، وينظمهم فى صف واحد، متلاقين مؤتلفين. مست روح الأدب هذا الحدث الجليل، وزينت مكانه وزمانه باقات من أزاهير البيان، وورود الفصاحة من فنون الكلام، نثراً وشعراً. ولعلنا نعود إلى الوراء قليلاً، نحاول قطف بعض من هذه الأزاهير وتلك الورود ولو فى الخيال، ترويحاً عن النفس، وتنشيطاً للهمة والعزم.

ملأ المكانَ عطراً وجمّله بأكرم ورود البيان ذكراً، الشاعرُ الأنيق بزة ورسماً، العميق رؤى وفكراً، الأزهرى الأصيل الشيخُ محمد الأسمر. وتلقفت «قيثارة» العرب أم كلثوم هذه الورودَ ونثرتها على الجمع، محفوفة بصوتها الساحر ولحنها الرائع وأدائها الفائق الروعة والجمال.

قال محمد الأسمر، وغنت «الست» سيدة الغناء العربى أم كلثوم:

زهر الربيع يُرى أم سادة نُجبُ ... ورَوضةٌ أينعت أم حفلة عجبُ

تجمّع الشرق فيها وهو مؤتلف ... كالعقد يلمع فيه الدر والذهبُ

كفاه أن يد الله تنظمه ... وأنه أمل للشرق مرتقبُ

بنى العروبة هذا القصرُ كعبتنا ... وليس فيه من الحجاج مغتربُ

عجبت للنيل يُطفى كل ذى لهب ... يكاد من نفحات الشرق يلتهبُ

حيّاكُمُ وهو جذلان، وقال لكم ... إن العروبة فيما بيننا نسبُ

هذى يدى عن بنى مصر تصافحكم ... فصافحوها تصافح نفسَها العربُ

نعم، إن العروبة بيننا نسب، وهذا يعنى التلاقى والائتلاف، والانتظام فى صف واحد، كالعقد المنسوقة حباته، المشرقة بصفائها ونقائها. وقد رحب النيل مصدر الخير والعطاء بهذه البادرة التى رعاها ويرعاها الله، بوصفها أملاً غالياً، يحقق للقوم غايتهم وأهدافهم.

وفى هذا الزمان الجميل ومن قبله ومن بعده، كان شعر شوقى وحافظ والجارم وغيرهم، تحفة أدبية عميقة عريقة، يود أن لو حازها أو شيئاً منها كلُ منتسب إلى العروبة ، يَريح بها نفسه ويعمق بها فكره، ويؤكد هويته وانتماءه.

والجارم، على وجه الخصوص، شاعر العروبة فى العصر الحديث بلا منازع، كانت له جولات وصولات مشهودة فى هذا الميدان العربى المتسع الأطراف والجنبات. فقد شرُق وغرُب بأشعاره الرائعة الرائقة وصال وجال فى دنيا العرب، راوياً تاريخهم فى سالف الأزمان، مناشداً إياهم - مجتمعين ومنفردين - مراجعة هذا التاريخ الطويل المشحون بمعانى العزة والقوة والكرامة، استنهاضاً للهمم، وإيقاظاً للشعور وتحريكاً للوجدان، علهم يأخذون العبرة وينسجون على منواله والقد على طرازه، فتلتئم الخيوط، وتلتقى الخطوط، مشكلة كلا متكاملاً يحمى الجسم العربى من عوادى الزمن وهوج رياحه.

يقول بادنا برسم منهجه هذا الحكيم :

أمـة العُرب آن أن ينهض النسرُ
فقـــد طـال عهده بالرقودِ
صفّقى بالجنـــاح فى أذن النجم
ومُدّى فضل العنان وسـودى
وأعـيدى حضارة سادت الدنيا
فكـــم وَدّت المنى أن تُعيدى
إنمـا المجـد أن تريدى وتمـضى
ثـم تمـضى سـبّاقةً وتريـدى
لا ينـال العـــلا سـوى عبقرى
راسـخِ العـزْم كالصفاة جليدِ

ويستمر الجارم مؤكداً إيمانه برسالة الأمة العربية واعتزازه وفخره بمجدها العظيم القائم على العدل والعلم والإيمان والقوة، فيقول:

أينما رَكَزُوا الرِّمَاحَ ترى العدلَ
مقيماً في ظِلِّها الممْدُودِ
وتَرى العلمَ يلتقي بهُدى الدينِ
على منهجٍ سويٍّ سديدِ
هم جدودي، وأين مثل جدودي
إن تصدى مُفاخِرٌ بالجدودِ؟

وهو لا يكتفي بالتذكير والتفاخر بالمجد القديم، وإنما يتخذ منه مثيراً للحنين إليه وباعثاً للتطلع إلى استعادته، وسبيله إلى ذلك تعميق الشعور بوحدة شعوب الأمة وفصائلها، وتنمية الوعي بمقومات هذه الوحدة:

بني العروبة إنَّ اللهَ يجمعُنا
فلا يُفَرِّقُنا في الأرض إنسانُ
أواصر الدم والتاريخ تجمعنا
وكلُّنا في رحاب الشرقِ إخوانُ

هذه المعاني السامية الهاتفة بحتمية التلاقي الهادفة إلى وحدة الصف، بخاصة وحدة المشاعر وتجاوب الوجدان، كانت تسيطر على قريحة الجارم وتشغل أدبه المنظوم المنسوق دائماً وأبدا. إنه يأخذ الأمة العربية جسداً واحداً، «إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى».

من ذلك قوله البليغ المؤثر في قصيدته «مصر تعزي العراق» التي أنشدها في حفل تأبين الملك غازي ملك العراق سنة ١٩٣٩م؛ يقول:

إذا مسّت البأساءُ أذيـــال دجلة

قرأت الأسى فى صفحة النيل والكمْدا

وإن طرفت عينٌ ببغداد من قذى

رأيت بمصـــر أعينـــاً ملـئت ســهْدا

إخاء على الفصحى تَّوثق عقدُه

وشُـــدَّت عـــلى الإيمان أطـــرافه شدّا

لنـــا فـــى صميم المجد خير أبوّة

زُهـــينا به أصـــلاً وتاهت بنـــا وُلْـــدا

ويا للعجب، ويا لسخرية الأقدار، فكأنما صنعت هذه الكلمات **وفى ضميرها أيضاً التعبير عن** مستقبل أليم حزين، **يصيب العراق فى الصميم، ويجثم على صدره، ويهد كيانه، ويهدم بنيانه، فى أيامنا هذه التى غشى ظلامُها كل أرجاء الوطن العربى.**

أما عن قضية العرب الكبرى - فلسطين - **التى لم يشهد عَمْر الجارم منها سوى الفصل الأول من نكبتها ونكبة الأقوام العربية جميعاً، فقد جاء نشيده لها مفعما باللوعة والأسى والغضب، محشوا بالصراخ لاستحياء الهمة، ولنجدتها وتخليصها من أيدى الغاصبين العابثين؛ يقول:**

نفسى فداء فلسطين وما لقيتْ

وهل يناجى الهوى إلا فلسطينا؟

أترتضـــى أن ترى ميراثنا بددا

ونكتفى بدمـــــوع فى مـــآقينا؟

بنى العروبة هـــذا اليوم يومكم

سيروا إلى الموت، إنَّ الموتَ يُحْيينا

إن لم تصونوا فلسطينا وجبهَتها

ضـــاعت عـــروبتُنا وانفضَّ نادينا

ويستمر دور الأدب فى تأكيد الانتماء ووحدة الصف والتلاقى فى الأفكار والاتجاهات والغايات، سالكاً سبلا أخرى أوسع وأعمق فى التأثير والفعالية على المستويات الخاصة والعامة.

كان اختيار القصائد لكبار الشعراء من العرب والمصريين وسيلة مُثلى لجمع الذوق العربى على هدف واحد؛ حين كانت أم كلثوم وعبد الوهاب يختاران قصائد للشعراء العرب؛ مثل بشارة الخورى والهادى آدم وچورچ جرداق والشابى وغيرهم.

وما أروع ما صنع عبد الوهاب وأم كلثوم فى توظيف الشعر العربى على المستويين العام والخاص، وتصنيفه سبيلاً راقياً إلى جمع الصفوف وتأكيداً للتلاقى بين العرب وجداناً وفكراً.

حلق عبد الوهاب فى سماء الشعر، والتقط من جواهره حبات كريمات من صنع الأقدمين والمحدثين على حد سواء. غنّى بعربية فصيحة صحيحة، فتعانق القبيلان وشكلا كياناً واحداً، راسخ البناء فريد الطلاء. وكان ما كان: زحف القـــوم إلى البناء مـــبـــهـــورين بالطلاء، واتخـــذوه لهم مـــقـــرا ومقاماً، واستوعبوا هندسته وأبعاده، ممثلة فى جواهر الكلام ونظمها، واستمتعوا بألوانه الدقيقة الرشيقة. حاورهم بشعر رائق المبنى عميق المعنى، يحاكى كوامن النفس العربية ويفصح عن ذواتهم، وما يلفهم من أحداث الزمان ووقائعه. كسا هذا النسيج وجمله بنغماته ولحونه، وطار به فى سماء العرب شرقاً وغرباً، فالتقطوه وازدهوا بصدقه وأصالته، وتسابقوا فى محاكاته،

حتى استقرت خيوطه فى عقولهم وجرت ألسنتهم على صنعه. وهكذا تم للغناء - بناءً وكساءً - دوره المتميز فى تقريب الشُقّة بين المستمعين ولغتهم القومية. فاطمأن القوم واستراحت نفوسهم وانفرجت أساريرهم، وتلاحمت الصفوف، وتلاقت الأفكار والمشاعر، وتأكدت لهم وحدة الصنع والطبع التى مازتهم من غيرهم من الأمم.

أما أم كلثوم ولياليها فكانت أشبه بجامعة عربية، تجمع العرب على كلمة سواء فى جو ساحر فريد، قوامه صوت قوى عبقرى، وموسيقى ذات قرار مكين: قرار يهدهد النفوس الحائرة ويحاور القلوب النافرة، علّها تدرك سر الحياة وما تموج به من أمل وألم، وألوان ذات طعوم تحكى مذاق الكلمة العربية ونغماتها، وتصور مدى التجاوب بينها وبين الإنسان العربى صاحب هذه الكلمة التى ابتكرها فكره وأفصح عنها لسانه.

ولم يقف عطاء أم كلثوم بغنائها ولحونها عند لون معين من ألوان الشعر أو عند فئة من الشعراء دون أخريات، بل اتسعت مظلتها لتغطى سماء العرب على اختلاف الزمان والمكان. غنت من القديم والحديث وطوّفت بالعالم العربى، فغنت لعبد الله الفيصل وعلى أحمد باكثير ونزار قبانى وغيرهم، كما شدت «الست» بكلمات للشاعر الباكستانى إقبال ولعمر الخيام، مُتَرْجَمَةً إلى العربية.

واتسع عطاء أم كلثوم وتنوعت طعومه وألوانه وامتدت مظلة عبقريتها إلى مختلف المجالات والأغراض: دينية، اجتماعية، وطنية قومية، تذكيراً للغافلين وتنبيهاً للواهمين، وحفزاً للمتكاسلين، واستنهاضاً للهمم، وتحذيراً للمعتدين، وتبشيراً بالنصر المبين، كما يظهر ذلك فى شدوها بقصيدة «القدس» لصالح جودت التى يقول فيها:

لا، والضحى والليل إما سجا   وكل سيّار به يهتدِى
لن يطلعَ الفجر على ظالم   مستغرق فى حقده الأسودِ

ستَرجع الأرض إلـــى أهلها ‏ ‏ ‏ محفـــوفة بالمجد والسؤددِ

والمسجد الأقصــى إلـــى ربه ‏ ‏ ‏ مزدهـيـاً بالــرُّكَّع السُّــجَّدِ

ستشرق الشمس عــلى أمة ‏ ‏ ‏ لغـــير وجـه اللـه لم تَسْجدِ

وهكذا صنع الأدب ويصنع فى أرقى طرزه بناءً وأجمل ألوانه طلاء ما شاء له الصنع من تحريك الوجدان وإثار الشعور وتفعيل الطاقات، وتوجيه كل ذلك إلى تجمع الرؤى وتوحيد الصفوف، واتساق المسالك والاتجاهات، ومن ثم يكون التلاقى عند الغايات والأهداف، مكللاً بأعلام النصر المنبنة عن القوة والمنعة. بفضل التآخى والتآلف من البدء إلى النهاية، وتجسيداً لتآخى جواهر الكلم وتآلف حبات العقود الأدبية، نثراً وشعراً.

وكما كان التلاقى بين العرب على موائد الطيِّب من الكلام والرائق الشائق من البيان، كان لقاؤهم حول رادة المبدعين لهذه الموائد فى صورة تدفع بالرائحين والغادين إلــى الالتفاف حــولها، وترطــيب ألسنتهم بأطايبــها وامتياز مذاقها.

التقى العرب فى مبايعة شوقى بإمارة الشعر، وغدا يدخل البيوت العربية بلا استئذان. قبل أن يدخله الساسة والحكام، ولم لا إذ كان الحادى للركبان الشادى بأعراف الأقوام، المبدع لعقود الشعر الموثقة فى سلكها كل معانى العروبة وقيمها من حب وولاء وأخوة ووفاء، الهاتفة بوحدة الشعور وعمق الأحاسيس والوجدان فى السراء والضراء على حد سواء؟

صنع شوقى الكثير من تلك العقود التى لا تجارى وليس فى بَدْعها وفنها أن تمارى. وعبر عن هذا كله فى نهاية المطاف بحبات غاليات، قليلة عدا، فريدة قدا، فى قصيدته التى ألقيت فى مهرجان مبايعته بإمارة الشعر سنة ١٩٢٧م؛ وفيها قال:

كان شعرى الغذاء فى فرح الشرق

وكـــان العـــزاء فى أحزانهْ

كلمـــا أنَّ بالعـــــراق جـــــــريح

لمس الشـرقُ جنْبه فى عُمانهْ

جمـع «الأمير» فأوعى، وفاء بوفاء وعطاء بعطاء، فكان التلاقى - ومازال - قوى الآصرة، يهدى النفوس الحائرة ويلملم الصفوف النافرة .

وتمتد أواصر اللقاء وتتأكد مسالك التآخى والالتقاء. سافرت كتب العقاد وطه حسين إلى كل بيت يتحدث العربية، وكانت الأغنيات الفصحى الحاملة أزاهير أرض الكنانة ضيفاً دائماً على مائدة العرب فى كل مناسباتهم، أينما كانوا وأنى ارتحلوا. وصارت روايات نجيب محفوظ والمسرح المصرى - كتاباً ورواية - يشهدها الناس أبلغ من كل مؤتمرات الساسة، كما كانت أعمال المنفلوطى وأضرابه من الأدباء والنابهين المجددين المقصد الأوفى والأقرب منالا لكل الشادين من الأقوام العربية، بخاصة الشباب وفتيان الصنعة.

حدث هذا ومازالت آثاره باقية، على الرغم مما يجرى فى السوق الأدبية الآن من شطحات ونزعات فردية ليس لها قرار، أو نهج مرسوم تتبعه، بدعوى التجديد المزعوم الذى يحسبه بعضهم انطلاقة نحو التطور، وملاحقة المواكب الزاحفة نحو غايات تقابل حاجة الإنسان المعاصر، وتشبع مذاقه.

نادى بعضهم باستخدام العامية فى الأدب، بدعوى التجديد والتيسير على الجماهير العريضة، كما يزعمون. وهو زعم مضلّل مضلِّل.

إن استخدام العامية فى الأدب بدعوى أنها لغة الناس اليومية، والفقراء منهم بوجه خاص، ليس منهجاً راشداً، ولا سبيلاً صائباً. إن العامية - وهى كثيرة الأنماط - مختلفة الأشكال والألوان، من شأنها أن تفرق لا توحد، وأن تهز البناء القومى، لا تقيمه.

ويؤكد العقاد زيف هذه الدعوى، وخطل القول فيما زعموا؛ فيقول: «العامية قبل كل شيء هى لغة الجهل، وليست بلغة الفاقة أو اليسار. وبين الأغنياء كثيرون لا يحسنون الكلام بغير العامية التى لا جمال لها ولا طلاوة، وبين الفقراء من يحسنون التعبير بالفصحى . . . فإذا عطفنا على العامية فإنما نعطف على الجهل ونستبقيه ونستزيده، ولا نخفف وطأة الفقر ذرة واحدة بتغليب عبارات الجهالة على العبارات التى تصاغ بها آراء المفكرين والمبدعين».

ويستمر الرجل فى كلامه متسائلاً: لم التواضع فى الكلام دون التواضع فى مظاهر الحياة الأخرى؟ فيقول: «إننا لم نسمع أن أحداً تواضع حبا للفقير فخلع حذاءه ليمشى حافياً، أو يلبس أرخص النعال. فما بال أناس يتواضعون فيخلعون لغة المعرفة والثقافة (الفصحى)، لأنها - كما يزعمون - لغة لا يفهمها الفقراء؟».

وفى إيجاز موجز، نقول: إن الأدب الذى من شأنه أن يخاطب الكافة ويؤدى دوره فى التلاقى بين الأقوام، وتقريب الشقة بينهم فكراً ووجداناً، لا يكون ولن يكون إلا بلغة موحُدة (بفتح الحاء) موحِدة (بكسرها)، ألا وهى عربية العرب.

وبعد، فهل لنا أن نعى الواقع المر البائس الذى نعيشه، وندرك أن ليس لنا الآن من رابط أكيد أو صلة وثيقة سوى اللغة وأدبها، ذلك الأدب الضارب بعيداً إلى أعماق التاريخ، يحكى تاريخ القوم وحضارتهم، ويظل سماواتهم بعطائه الفياض؛ يحرك الشعور، ويصقل الوجدان وينشط الفكر، محاولاً بآماله أن يرشد ويوجه إلى حتمية التلاقى وتأكيد الانتماء، إذا كان لهم أن ينعموا بالأمن والأمان، مرشحين للحفاظ على كيانهم ووحدتهم والتصدى لكل عابث أثيم يحاول الهيمنة والسيطرة على مقدراتهم وثرواتهم ؟

أقول: لعل وعسى. وأختتم قولى هذا بتلك العبارة الحصيفة التى أطلقها قس ابن ساعدة منذ قرون: «أيها الناس: اجتمعوا واسمعوا وعوا. . .».

معهد البحوث والدراسات العربية
INSTITUTE OF ARAB RESEARCH AND STUDIES
عضو اتحاد الجامعات العربية